واطلاق المدافع على القوم . غير انَّ القوَّة الجبريَّة لا تشفي ادواء القلوب واذا استتبَّ الصلح زمنًا يسيرًا فيبقى وميض النار كمينًا تحت الرماد يستثير دفينَهُ ادنى الاسباب. فلعمري لقد ساء من رأى للهند تقدُّمًا في حكمتها ودينها ولو عاين ما ينجم عن هذه اللفوف والطبقات المتباينة من الشرور المتفاقة لما تردَّد في تقريع حكمائها الاقدمين الذين زرعوا الريح فجنى ابناؤهم الزوبعة. فهيهات بين هذا التمدُّن الهندي ونتائجهِ الوخيمة وبين التمدن المسيحي المبني على روح التواضع والسلم الذي ألَّف القلوب وجمع الامم في الحب والمساواة فلم يبقَ بين اصحابهِ كما قال الرسول (كولوسي ٣: ١١) : « لا يوناني ولا يهودي . . ولا عبد ولا حرّ بل المسيح هو كلّ شيء وفي الجميع »

في اعمار الاباء الاوَّلين

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري يوسف الدلم

ما زال البعض يسألون عن أعمار الآباء الأولين كآدم واولادهِ ان كانت مدَّتها كما ذكرها موسى الكليم عليهِ السلام في سفر التكوين والبعض الآخر لا يخجلون من تخطئتهِ او تأويل كلامهِ الى خلاف معناه بزعمهم انَّ السنة التي ذكرها لم تكن الَّا مدَّة وجيزة عبارة عن شهر ثلاثين يومًا تقريبًا محتجّين بانهم لا يرون الآن من يعيش تلك السنين الطوال التي عاشها اولئك الآباء وان ذلك مخالف للسادئ الطبيَّة . فطلب اليَّ بعض الاصحاب جوابًا شافيًا على ذلك بحيث لا يبقى بعدهُ مجال للسؤال والاعتراض فمن ثمَّ رأيت اجابةً للطلب ان أبسط البيِّنات الدامغة على صحة كلام موسى وسلامة تعبيره من تأويلهِ الى خلاف معناهُ

فاقول (اولًا) انَّ موسى الذي ذكر ان آدم مثلًا عاش تسعمائة وثلاثين سنة وشيثًا عاش تسعمائة واثنتي عشر سنة وأنوش عاش تسعمائة وخمس سنين الى غيرهم من اولئك الآباء قد اراد بالسنة اثنى عشر شهرًا وبالشهر ثلاثين يومًا نظير حسابنا الآن. لانهُ بعد ان ذكر اعمار اولئك الآباء في الفصل الخامس من سفر التكوين اتى في الفصل السابع وما بعدهُ من السفر المذكور على ذكر الطوفان وهناك ابان عن عدد ايام السنة والشهر فقال (تك ٧: ١١—١٢ و ٨: ٤—١٣):

« في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منهُ انفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت كوى السماء وكان المطر أربعين يوماً واربعين ليلةً في ذلك اليوم دخل نوح وعائلتهُ الى الفلك . . . . وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقرَّ الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منهُ على جبال أراراط وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً الى الشهر العاشر . وفي اوَّل يوم منهُ ظهرت رؤوس الجبال وحدث من بعد اربعين يوماً أنَّ نوحاً فتح طاقة الفلك وأرسل الغراب فلم يَعُد ثم أرسل الحمامة لاول مرَّة ثم لبث سبعة ايام أُخر وأرسلها ثاني مرَّة ثم لبث سبعة ايَّام أخر وأرسلها ثالث مرَّة . . . وكان في السنة الواحدة والستمائة (من حياة نوح) في الشهر الاول في أوَّل الشهر أن المياه نشفت عن وجه الارض وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر خرج نوح وعائلتهُ من الفلك . . . »

فهذا كلام موسى لا يترك مجالًا للتأويلات ولا التباس فيهِ ولا ابهام لانَّ موسى قد أبان عن السنة وشهورها وعن الشهر وأيَّامهِ وذكر النهار وذكر الليل حيث قال اوَّلًا انَّ الطوفان وقع في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر . ثمَّ قال انَّهُ « بعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه وانَّ الفلك استقرَّ في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منهُ » لنزول الطوفان فالمائة والخمسون يوماً عبارة عن خمسة اشهر فأضفها الى الشهر الثاني المذكور يكن الشهر السابع الذي استقرَّ فيهِ الفلك على جبال أراراط . ثمَّ ذكر الشهر العاشر بقولهِ : « وكانت المياه تتناقص نقصاً متوالياً الى الشهر العاشر » وذكر اربعين يوماً لتناقص المياه . ثمَّ ذكر انَّ نوحاً أرسل الحمامة ثلاث مرَّات بين كل مرة منها والاخرى سبعة أيام جملتها واحد وعشرون يوماً فاضفها الى الاربعين يوماً يحصل منها شهران تتمَّة الاثني عشر شهرًا وهي سنة كاملة وقد رأيت ان موسى ذكر انَّ الطوفان كان ابتداؤهُ سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منهُ . ثم ذكر « انهُ في السنة الواحدة والستمائة (من حياة نوح) في الشهر الاول نشفت المياه وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين جفَّت الارض وخرج نوح وعائلتهُ من السفينة »

فمن بعد كل هذه التوضيحات هل يحتاج السائل الى زيادة بيان ليعلم ان السنة والشهر واليوم المذكورات في الكتاب المقدَّس عن اعمار اولئك الآباء الاولين هي كالتي عندنا الآن

اقول (ثانياً) انَّ موسى ذكر في الفصل الخامس من سفر التكوين من جملة اولئك الاباء الاولين ان مهلائيل عاش خمساً وستين سنة وولد يارد وان احنوخ عاش خمساً

وستين سنة وولد متوشلح. فلو كانت السنة الواحدة من تلك السنين عبارة عن شهر تقريباً كما يريد ان يتأوّلها بعضهم لكان كلٌّ من مهلائيل واخنوخ ابن خمس سنين وخمسة اشهر لمّا ولدا ولديهما يارد ومتوشلح. ثمّ ان موسى نفسهُ ذكر في الفصل الخامس والعشرين من السفر المذكور انّ ابرهيم مات شيخاً ممتلئاً من الايام وانّ ايامهُ كانت مائة وخمساً وسبعين سنة فاذا اعتبرنا هذه السنين شهوراً كما يزعم البعض كانت ايام ابرهيم اربع عشرة سنة وسبعة اشهر فهل تُعدّ هذه المدة شيخوخةً وامتلاء من الايام...؟

اقول (ثالثاً) امّا ما يوردهُ المعترضون من الحجّة بانهم لا يرون الآن من يعيشون تسعمائة سنة نظير اولئك الآباء وان تلك الاعمار الطويلة الموودة في الكتاب مخالفة للبادئ الطبيّة فهو مردود بانّ الحياة البشريّة ليس لها مقياس واحد ولا الاعمار لها مقدار واحد. وها اننا نرى الناس الان لا يعيشون كلهم عمرًا واحدًا بل منهم مَن يعيش عشر سنين مثلًا ومنهم مَن يعيش مائة وثلاثين سنة فالنسبة بين هذا وذاك من جهة العمر كالنسبة بين اناس هذا العصر واولئك الآباء الاوّلين ومَن ترى يقول بان التفاوت الحاصل بين عمر من يعيش عشر سنين وعمر من يعيش مائة وثلاثين سنة من اهل هذا الزمان هو مخالف للبادئ الطبية ؟

هذا ولا يخفى على البصير المتديّن ان للعناية الالهيّة في تدبير هذه الخلائق اسرارًا تأتيها بحسب مقتضيات الازمان والاحوال. فالاولون قد أُتيح لهم ان يعيشوا طويلًا لغاية تكثير النسل وتوطيد اركان العمران ونشر الديانة والعبادة الالهيّة والمعارف الضروريّة لتدبير الحياة البشريّة هذا فضلًا عن حسن بنية اجسامهم وتمتّعهم في المعيشة فلو لم يعش آدم معهم ويعيشوا هم معهُ زمنًا طويلًا لما تأتى لهُ ان يبثّ بينهم ما كان المولى قد زانهُ بهِ من الحكمة والمعارف منذ يوم نشأتهِ. فائمّة العلماء قد اجمعوا على ان آدم الاب الاول لم يوجد في هذا الوجود في حالة الجهالة اي صحيفة غير مكتوب عليها شيء. كما يوجد باقي الناس بل زانهُ مولاهُ جلّ جلالهُ من يوم برأهُ بالحكمة والعلم. وبيانهُ انّ آدم سمّى الحيوانات باسمائها على ما قال الكتاب في الفصل ٢ من سفر التكوين: «فدعا آدم باسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرّيّة وكلّ ما دعا بهِ ذات نفس حيّة فهو اسمها». اي انّ آدم عرف مزايا هذه الخلائق وطباعها ووضع لها اسماء مطابقة

لما قال كلّمت عند هذه الآية : « ان تسمية آدم لهذه الحيوانات باسمائها ضرب من استعمال ولايته عليها ووضعهُ اسماً مطابقاً لكلٍّ منها يستلزم معرفة سامية فيه ليتسنى لهُ ان يعرف طبائعها وخصائصها توصّلاً الى وضع اسماء مناسبة لها . ولذلك قد اخذ الفلاسفة الاقدمين العجبُ العجاب من علوّ حكمة من اخترع اولاً تلك الالفاظ واجراها على تلك المخلوقات مسمّياً كلاً منها باسم مناسب لها . قال يوسيفوس : انَّ تلك الاسماء التي بها سمّى آدم الحيوانات كانت عبرانيّة لانَّ اللغة العبرانيّة فيها مطابقة عظيمة بين تلك الاسماء ومسمّياتها (١ »

وقال القديس توما اللاهوتي : لقد أُبدع الانسان الاول من الله عالماً بجميع الاشياء التي من شأن الانسان ان يتعلّمها اي جميع ما يقدر الانسان ان يعرفهُ بالقوّة الطبيعيّة لكن لمّا كان تدبير الانسان لحياتهِ وحياة غيرهِ لا يستلزم ما يمكن معرفتهُ بالقوّة الطبيعية فقط بل معرفة ما لا تصل اليهِ المعرفة الطبيعية ايضاً من وجه انَّ حياة الانسان متّجهة الى غاية فائقة الطبع كأن لا بدَّ لنا في تدبير حياتنا من معرفة عقائد الايمان . ومن ثمّة فالانسان الاول قد تلقى من معرفة هذه الامور ما كان ضرورياً لتدبير الحياة الانسانية باعتبار تلك الحال واماَّ سائر الاشياء التي لا يمكن الانسان معرفتها بالاجتهاد الطبيعي ولا هي ضروريّة لتدبير الحياة البشريّة فالانسان الاول لم يعرفها وذلك كافكار الناس والحوادث المستقبلة وبعض الامور الجزئية كعدد حصى النهر ونحو ذلك . فالانسان الاول اذاً حصل لهُ علم جميع الاشياء بالصور المفاضة من الله ولم يكن ذلك العلم مع هذا مغايراً في الحقيقة لعلمنا بقياس ما انَّ العينين اللتين وهبهما المسيح لذلك الاعمى لم تكونا في الحقيقة مُغايرتين للاعين التي اصدرتها الطبيعة . وكما خلق الانسان منذ الابتداء كاملاً في الجسد قادراً على التوليد كذلك وُجد كاملاً في معارفهِ لتدبير حياتهِ وحياة غيرهِ ولقد كان واجباً ان يكون لهُ من حيث كان الانسان الاوّل شيء من الكمال لا يقتضي لسائر الناس . انتهى بتصرُّف قليل (المبحث ٩٤ في حالة الانسان الاول)

---

(١) لا يعدُّ العلماء قول يوسيفوس في اسماء الحيوانات بالعبرانية كحجّة قويّة وقد ثبت اليوم انَّ اللغة العبرانية فرع من لغات اقدم عهداً